اربعون سنة على الراديوم

محسنة الى الانسانية

مشاهد رائعة من حياة مدام كوري

احتفلت الدوائر العلمية في اواخر نوفمبر الماضي بانقضاء اربعين سنة على كشف الراديوم. وقد سبق لنا ان نشرنا في المقتطف غير بحث واحد في هذا العمل العلمي العظيم وسيرة الاستاذ بيير كوري وزوجته ماري سكلودوفسكا كوري وضمنا كتابنا «اساطين العلم الحديث» فصلاً خاصاً بمدام كوري. وها نحن ننشر فيما يلي مشاهد رائعة من حياة هذه السيدة العظيمة مختارة من ترجمتها التي ظهرت حديثاً بقلم احدى ابنتيها، احتفاء بذكرى كشف الراديوم في اواخر نوفمبر من سنة ١٨٩٨

***

لو طلب الينا ان نتمثل نبل الانسانية في انسان لتمثلناهُ في مدام كوري، ففي عقلها عبقرية التفكير العلمي، وفي قلبها عبقرية الشعور السامي، وفي حياتها آيات من التضحية، والسمو، والبعد عن كل ما يلطخ الخلق ويهبط بهِ من الذرى الى التراب

في سيرة هذه المرأة العجيبة آيات تليها آيات تليها آيات، حتى لقد اصبحت آيات حياتها اجزاء من اسطورة كأنها اسطورة احدى ربات الاغريق القدماء، مع ان النبض في قلبها لم يقف الاَّ في سنة ١٩٣٤ من التاريخ الميلادي

كانت ابنة شعب مستبدٍّ بهِ، ذكيةً فقيرةً جميلةً دعاها العلم فلبّت، ولكنها قبل ان تصبح جديرة بأسمى تقاليد العلم، عاشت سنوات في باريس صادفة عن كل شيء الاَّ عن التحصيل، حتى لكثيراً ما صدفت عن الاكل والدفء، ثم قابلت رجلاً في عبقريتهِ ما لاءم عبقريتها، فاتحدا في الحياة وبعد الممات، لان ماري كوري ظلت بعد موت زوجها وهي لا تزال في التاسعة والثلاثين من العمر، لا تنسى المثل العالي الذي ضربهُ في العلم الصحيح والخلق النبيل، فما اكرمت مرة الاَّ وكان في كلامها اشارة نبل وعطف اليهِ

كشفت الراديوم في أحوال ترحق من لم يكن منها مندفعاً بشعلة علوية . فتفتحت الانسانية بعنصر جديد عجيب، وبأسلوب جديد للعلاج ، وفتحت أمام الذهن الانساني مغاليق علم جديد

واذ كانت ماري وزوجها بيير ، في أول الطريق الخارج من كهف الظلمة والافتقار والفقر المدقع ، نزلت بهما آية الحزن بفقد زوجها ووالد بنتيها ، ولكنها على الرغم من الألم النفسي والوحدة الموجعة ، والتعب الجسماني ، مضت في العمل الذي بدآه معاً ووسعت آفاق العلم الذي خطّا قواعده الاولى . وباقي حياتها يدور حول الاعطاء الدائم والمنح المستمر . لا تحفل بنفسها بل تنسى نفسها وبنتيها ،حين تقتضي منها مصلحة العلم ،او مصلحة الوطنين — بولندة وفرنسا — او مصلحة الانسانية ، بذلاً ما ، تعطي وتمنح كالشجرة الفوّاحة الشذا في الحقل ، لا تفكر في ما تفوح به ، ولا بمن يرده عليها ،لان حياتها في الفوح

قصة جديرة بموسيقي عبقري يخرج منها سمفونية « الانسانية النبيلة »

***

١ — ولدت في بولندة سنة ١٨٦٧ في بيت ترفرف في جوه اجنحة الثقافة والعلم ، ويخفق في قلوب كباره وصغاره حب الوطن المظلوم . كانت صغرى ذلك البيت ، ولكنها كانت اذكى اذكيائه . فهي في المدرسة مثل يضرب في المواظبة والطاعة والوطنية وسرعة التحصيل وقوة البداهة . وهي في البيت مثل للحنو والعطف على والدها الشيخ ، والاقتصاد في ما تقتضيه من نفقات في ميزانية البيت الضئيلة . وكانت تعلم ان شقيقتها « برونيا » ترنو الى طلب الطب في باريس . وانها لا تملك نفقة ذلك الطلب ، فمحت « ماري » آية نفسها ، وكانت في التاسعة عشرة من عمرها ، ولها في حياتها آمال ومطامع وقالت لشقيقتها اذهبي انت الى باريس بما لديك وأنا أجدُّ ما أعمله هنا فأرسل اليك كل شهر جانباً من النفقات . وبقيت هذه الفتاة ست سنوات مدرّبة أطفال في أحد بيوت الريف البولندي ، لكي تمكن شقيقتها من التعلم العالي مع انها كانت تعلم ان في عقلها ملكات مدفونة تحتاج الى صقل حتى تبرز لامعة خطّافة . ترى ما كان مصير « ماري » وما كان مستقبل الراديوم ، وعلاج السرطان الراديومي ، وعلم الاشعاع قاطبةً ، لو ان الزمن امتدَّ قليلاً « بماري » وهي مدرّبة أطفال ، حتى خبت في نفسها شعلة التوق الى دراسة الطبيعة العالية ، فانفقت بقية حياتها مدرسة ممتازة في مدرسة ثانوية ببولندة ؟

إلاَّ ان في الطبيعة والحوادث الحكمة آيات تجوز عقولنا القاصرة . ومن آياتها انها لم يتح لماري أن تذهب الى باريس ، الاّ وقد تهيأ مسرح العالم لرواية « الراديوم » بكشف الاشعة السينية وأشعة بكريل

٢ — لقد كشف الراديوم وآمنت به الدوائر العلمية بعد ما أنكرت وتنكرت ، آمنت بقوة التجربة والبرهان الرياضي والعلمي . واستعمل هذا العنصر العجيب في شفاء الامراض السرطانية الخبيثة فذاع ذكراه في كل قطر . ولكن الغرام الواحد لا يستخرج الآن من مئات من الاطنان من ركاز خاص ، وبأسلوب معقد لا تعرفه الآن مدام كوري : أتسجل ذلك الاسلوب وتستخرج امتيازاً به فلا تبيح استعماله الآن وفي لها أتاوة عليه ، كبيرة كانت او صغيرة ؟ انها اذا فعلت فليس في فعلها ما هو مستغرب او مستنكر . فقد قضت أربع سنوات تبحث عن الراديوم في سقيفة يتهطل من سقفها ماء المطر وتصفر في شقوق أخشابها ألسنة الرياح ، وكثيراً ما كانت تقضي أياماً كاملة وهي تحرك مزيجاً على النار بهراوة من الحديد تكاد تماثلها وزناً . كل ذلك وهي لا تعلم من أين تجيء بالنفقات اللازمة للبيت وللابنتين ؟ نعم كان زوجها يدرس الطبيعة ولكنه كان يستوفي مرتباً دونه ما يكسبه الحمالون

ودخل عليها زوجها في صباح ما بعد اكتشاف الراديوم ، وقال لها لنتكلم قليلاً فيه ثم بسط لها الفرق بين التسجيل والاباحة ثم قال لها ان شركة اميركية كتبت تبتغي تفصيلاً لطريقة استخراج الراديوم . فقالت (طيب) فقال وعليك ان تقرري هل نسجل هذه الطريقة كأن الراديوم من مخترعاتنا أو نبيحها للعالم بلا شرط ولا قيد ، وقبل ان تقرري لا تنسي الفرق بين التسجيل والاباحة ، لنا ولابنتينا ، فرفعت رأسها وقالت : « ان التسجيل مخالف للروح العلمية » وكذلك أبيح الراديوم للعالم !

***

٣ — وكأن الحياة أرادت ان تجلو بالموت آية الحياة في هذه المرأة ، فجيء بزوجها في أحد أيام سنة ١٩٠٦ محمولاً على الاعناق وهو لا يزال في عنفوان رجولته وقد كسرت جمجمته ونثرت خلايا دماغه عجلة مركبة للنقل تقل ملابس للجنود . فكتمت لوعتها وانطوت على نفسها ، حتى خيل الى أقرب المقربين اليها ان خطراً يهدد عقلها العلمي العظيم . وحينئذ نهضت فرنسا الى مستوى عظمة هذه المرأة الغريبة عن فرنسا فعينتها خلفاً لزوجها أستاذاً في كلية العلوم بالسربون — أول امرأة تدخل السربون نداً بين انداد من أقطاب العلماء !

واقترب يوم محاضرتها الاولى . فهرع الى مدرج السربون الحكام والامراء والعلماء والطلاب من أجانب وفرنسيين حتى ضاقت بهم رحابه . والجميع يسألون ما يكون موقف هذه السيدة بعد وفاة زوجها . أتستطيع حقاً ان تمضي في الشوط الى نهايته وحدها ؟

وقرعت الساعة الثالثة ، ففتح باب جانبي ودخلت سيدة هزيلة شاحبة مرتدية السواد فحياها

الجمهور بالهتاف ، توقفت مرتبكة ثم رفعت يدها فساد السكون ، ثم شرعت في القاء محاضرتها . فاذا هي تصل ما انقطع من محاضرة زوجها قبيل مصرعه . لم تشر بكلمة واحدة إلى نكبتها بزوجها وعظم خسارتها وخسارة العلم بفقده

وهذا ضرب من الشجاعة الصامتة جدير بأن يحتذى

***

٤ — إلاّ أن الخساسة من طبيعة النفوس الصغيرة وما كان نجاح هذه السيدة ، وذيوع شهرتها إلاّ باعثاً على حملة خسيسة دبرت عليها . فشرعت الصحف تشير اليها بوصف «السيدة الاجنبية» أو «الدخيلة» ولم يتورع بعضها عن التلميح الى أنها مدمرة البيوت — وهي التي لم يكن لها متسع من الوقت إلاّ للتفكير في الراديوم اولاً فاذا كان لها شيء من الفراغ عنيت بابنتيها

وذاع نبأ هذه الحملة في وطنها الاصلي ، فاجتمع علماء بولندة وكتابها ، وأوفدوا اليها وفداً يطلب اليها العودة إلى مسقط رأسها ، حيث ينشأ لها معهد خاص بها ، تديره وتبحث فيه ، بعيدة عن الأهواء والمطامع . فأبت ، لان لفرنسا — وطنها الثاني — وللراديوم وللمعهد الخاص به الذي حلت بانشائه هي وزوجها سماً، حقوقاً عليها لا تمحوها خساسة بعض الناس

ومع أن اكاديمية العلوم أبت أن تنتخبها عضواً فيها بحجة أنها امرأة ، مع تأييد أعاظم العلماء لها ، إلاّ ان اكاديمية الطب الفرنسية ، كفرت عما جنته أكاديمية العلوم بعد سنين فانتخبتها بعد الحرب ، عضواً فيها بالاجماع

***

٥ — وجاءت الحرب الكبرى ، وكانت مدام كوري قد نالت جائزة نوبل مرتين — اولاً سنة ١٩٠٣ بالاشتراك مع زوجها وبكريل — وثانياً وحدها سنة ١٩١١ — وبلغت السابعة والاربعين من العمر فتلفتت حولها ، ورأت أن تطوعها ممرضة في احد المستشفيات ، أسهل طريق لخدمة فرنسا ، فلم ترض بالطريق السهل . وبحثت في حالة المستشفيات العسكرية فرأتها خالية من أجهزة الاشعة السينية اللازمة لتشخيص كثير من العلل والاصابات التي تلازم الحياة العسكرية ، فقضت اربع سنوات من الجهد المتواصل ، في صنع هذه الاجهزة وتدريب من يستعملها ، واستعمالها ، ونظمت فرقة جوالة من السيارات بعد ما جهزتها بالمعدات اللازمة للفحص الطبي بالاشعة السينية ، ولم يثنها سنها عن تعلم سوق السيارات لكي تقود احداها بنفسها . وكثيراً ما كانت تنفق من ١٦ الى ١٨ ساعة كل يوم في التنقل من مستشفى عسكري الى آخر تعاون الاطباء في اعمال الكشف ، ولم يكن بالنادر أن تجري العمليات الجراحية والمصاب معرض للاشعة

لان ذلك يسهل معرفة مكان الرصاصة أو شظية القنبلة او العظم المكسور

وقد كانت مدام كوري تحسب نفسها جندياً في خدمة فرنسا . فاذا ذهبت الى مستشفى من المستشفيات حيث لا تعرفها رئيسة الممرضات وعوملت معاملة امرأة عادية وبشيء من الخشونة كانت لا تباهي بمن هي ولا بما فعلت وانما كانت تتغلب على ما يساورها من شعور الحمية بأن تتذكر أن الملكة اليصابات البلجيكية كانت مثلها تقدم مؤاساة الجرحى على المكانة والمقام

ومع ان مدام كوري أبت غير مرة ان يقترح اسمها لكي يهدى اليها وسام اللجيون دونور فالمقربون اليها يعلمون انها كانت تغتبط باهداء وسام اللجيون دونور الحربي اليها بعد الحرب ، لانها كانت تحب ان تعرف بصفة الجندي المكافح

ولكن هذه الرغبة الدفينة لم تجد من يفكر فيها ويحققها

***

٦ — وجاءتها في أحد الايام أميركية معجبة بها وفي خلال الحديث سألتها ما تبتغي لو خيرت في شيء واحد تطلبه فقالت : غرام من الراديوم أستعمله في بحوثي . فدهشت الاميركية ان تجد المرأة التي وهبت الراديوم للعالم وأباحت لهُ طرائق استخراجه المعقدة وهي لا تملك منهُ ما يكفيها للسير في بحوثها . فعادت الى أميركا وأقامت الدنيا وأقعدتها حتى اشتركت نساء أميركا في اكتتاب عام لشراء غرام من الراديوم يهدى الى مدام كوري ، ولما قدم لها رمزه في البيت الابيض في ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ قال الرئيس هاردنغ وهو يقدمه « نحن مدينون لك بمعرفتنا له (الراديوم) وملكنا اياهُ لذلك نرفعهُ اليك ونحن واثقون بأنه وهو في حيازتك لا بد ان يكون وسيلة لتوسيع نطاق العلم وتخفيف آلام الناس »

وما كادت تتسلمهُ حتى وهبته لمعهد الراديوم بباريس . ثم عادت الى اميركا بعد سنوات فوهبتها سيدات اميركا غراماً آخر فوهبتهُ لمعهد الراديوم في وارسو عاصمة بولندة

***

هذه صور خاطفة من حياة هذه المرأة الفذة في عقلها وخلقها وآثرها . ان تعديد الالقاب العلمية التي انهالت عليها من اعظم معاهد العالم وجامعاته يملأ اربع صفحات كبيرة ، ولكن لا الشهرة استهوتها ولا طلب الثروة صرفها عن سبيلها — سبيل العلم والخدمة ، فكانت حياتها سلسلة ذهبية متصلة الحلقات من الاعطاء والمنح والبذل نصح فيها قول جبران « ... هؤلاء يعطون كما ينشر الريحان اريجه الفواح في ذلك الوادي . . . بمثل أيادي هؤلاء يتكلم الله ، ومن خلال عيونهم يبتسم للارض »